

الهمة طريق إلى القمة

يتناول الدرس أهمية علو الهمة وما هو علو الهمة ووسائل ترقية الهمة والنهوض بها، والعلامات الدالة على علو الهمة، والعلامات الدالة على سفول الهمة، وكيفية استثمار همة الناس، ثم ذكر محاذير موجهة لأهل الهمة العالية ليجتنبوها .

معنى الهمة: جاء في 'القاموس': 'هم م': 'ما هُمُّ به من أمر ليفعل'. فالهمة هي الباعث على الفعل، وتوصف بعلو أو سفول، فمن الناس من تكون همته عالية علو السماء، ومنهم من تكون همته دنيئة سافلة، تهبط به إلى أسوأ الدرجات.

◀ وعرف بعضهم علو الهمة فقال

: 'هو استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور'.

قال ابن القيم رحمه الله ، واصفًا الهمة العالية: 'علو الهمة ألا تقف - أي النفس - دون الله، ولا تتعوض عنه بشيء سواه، ولا ترضى بغيره بدلاً منه، ولا تبيع حظها من الله، وقربه والأنس به، والفرح والسرور والابتهاج به بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية. فالهمة العالية على الهمم كالطائر العالي على الطيور، لا يرضى بمساقطهم، ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم، فإن الهمة كلما علت بعدت عن وصول الآفات إليها، ولكما نزلت قصدها الآفات من كل مكان'.

◀ وقد حذر السلف كثيرًا من سقوط الهمة وقصورها: فقد قال الفاروق عمر رضي الله عنه: 'لا تصغرن همتك، فإني لم أر أقعد بالرجل من سقوط همته'.

وقال ابن نباتة:

حاول جسيمات الأمور ولا تقل إن المحامد والعلی أرزاق

وارغب بنفسك أن تكون مقصرً عن غاية فيها الطلاب سباق

وقد قيل: 'المرء حيث يجعل نفسه، إن رفعها ارتفعت، وإن قصر بها اتضعت'.

والهمة قسمان: وهيبية، وكسبية:

◀ فالوهيية: هي ما وهبه الله تعالى للعبد من علو الهمة، أو سفولها، ويمكن أن تنمى وترعى، أو تهمل وتترك.

◀ فإن نماها صاحبها وعلا بها صارت كسبية: أي أن صاحب الهمة كسب درجات عالية لهيمته، وزاد من أصل مقدارها الذي وهبه الله إياه، وإن تركها وأهملها ولم يلتفت إليها خبت وتضاءلت، والهمة في هذا تشترك مع باقي الصفات العقلية والخلقية كالذكاء وقوة الذاكرة وحسن الخلق وغير ذلك مما هو معلوم بدهي.

قال ابن الجوزي رحمه الله: 'وقد عرفت بالدليل أن الهمة مولودة مع الأدمي، وإنما تقصر بعض الهمم في بعض الأوقات، فإذا حثت سارت، ومتى رأيت في نفسك عجزًا فسل المنعم، أو كسلًا فالجأ إلى الموفق، فلن تنال خيرًا إلا بطاعته، ولا يفوتك خير إلا بمعصيته'.

مراتب الهمم: الناس متفاوتون في أمرين: مطالبهم وأهدافهم. والهمم الموصلة إلى هذه المطالب والأهداف.

فمن الناس من يطلب المعالي بلسانه، وليس له همة في الوصول إليها، فهذا متمنّ مغرور. ومن الناس من لا يطلب إلا سفاف الأمور، وهم فريقان:

◀ فريق ذو همة في تحصيل تلك الدنيا، فتجده السباق إلى أماكن اللهو، ومغاني الغواني، وهذا إن اهتدى يكن سباقًا إلى المعالي، ذا همة عالية نفيسة: [النَّاسُ مَعَادُنُ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَهُوا] رواه البخاري ومسلم وأحمد.

◀ وفريق لا هم له، فهو معدود من سقط المتاع، وموته وحياته سواء، لا يفترق إذا غاب، ولا يسأل إذا حضر.

◀ ومن الناس من تسمو مطالبه إلى ما يحبه الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وله همة عظيمة في تحصيل مطالبه وأهدافه فهنيئًا له.. وبين كل هذه الأقسام مراتب كثيرة متفاوتة.

قال ابن القيم: لذة كل أحد على حسب قدره وهمته وشرف نفسه، فأشرف الناس نفسًا، وأعلاهم همة، وأرفعهم قدرًا؛ مَنْ لذتهم في معرفة الله ومحبته، والشوق إلى لقائه، والتودد إليه بما يحبه ويرضاه!

وقال أيضًا: والله الهمم ما أعجب شأنها وأشد تفاوتها!، همة متعلقة بالعرش، وهمة حائمة حول الأنتان والحش!

يتفاوت الناس في همهم فتفاوت على هذا أعمالهم وحظوظهم ودرجاتهم : وإذا أردت أن تعرف مراتب الهمم، فانظر إلى:

◀ همة ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه وقد قال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [سَلِّ] فَقَالَ: 'أَسْأَلُكَ مَرَأَفَتَكَ فِي الْجَنَّةِ' رواه مسلم والنسائي وأبو داود. وكان بعض الناس يسأله ما يملأ بطنه، أو يوراري جلده.

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني لغلامه: 'يا غلام: لا يكن همك ما تأكل وما تشرب، وما تلبس وما تتكح، وما تسكن وما تجمع، كل هذا هم النفس والطبع فأين هم القلب، همك ما أهمك، فليكن همك ربك عز وجل وما عنده!'

◀ وهذه من أعظم الوصايا للدعاة حتى لا تضعف همتهم أمام المغريات؛ لا سيما وأن من أهم صفات الداعية مخالطته للناس والتأثير عليهم، فكم من داعية انزلت في بحر هذه المغريات حتى أضحت الدعوة آخر اهتماماته.

◀ وأما أمر ابن عباس رضي الله عنه مع صاحبه الأنصاري، فهو دليل على تفاوت الهمم واختلاف مراتبها، فقد قال رضي الله عنه: 'لما قبض رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلت لرجل: هلم فلنتعلم من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنهم كثير' فقال: العجب، والله لك يا ابن عباس، أترى الناس يحتاجون إليك، وفي الناس من ترى من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! فتركت ذلك، وأقبلت على المسألة، وتتبع أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن كنت لأتي الرجل في الحديث يبلغني أنه سمعه من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأجده قائلاً، فأتوسد رداي على باب داره تسفي الرياح على وجهي حتى يخرج إلي، فإذا رأني قال: يا ابن عم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما لك؟ قلت: حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأحببت أن أسمعه منك.

فيقول: هلا أرسلت إلي فاتيك؟ فأقول: أنا كنت أحق أن أتيك. وكان ذلك الرجل يراني، فذهب أصحاب رسول الله وقد احتاج الناس إلي، فيقول: 'أنت أعلم مني' [قال في 'مجمع الزوائد' ٢٨٠/٩: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح].

◀ وترى اليوم من تفاوت الهمم أمرًا عجبًا: فإذا استثنى الناظر في أحوال الناس أمر العامة – واستثنوا هم واجب لأنه قد ماتت همهم، وقعدت بهم عن تحصيل معالي الأمور- واطلع على أحوال الخاصة وهم: الدعاة، وطلاب العلم، وباقي الملتزمين الحريصين على دينهم؛ سيصاب بالدهشة لما يراه من فتور الهمة، وأنها الشأن الغالب على الخصوص الذين ذكرتهم:

فمنهم: من إذا من إذا اطلع ساعة، أو ساعتين في اليوم؛ ظن أنه قد أتى بما لم يأت به الأوائل.

ومنهم: من إذا خرج لزيارة فلان من الناس بقصد الدعوة يظن أنه قد قضى ما عليه من حق يومي.

ومنهم: من تتغلب عليه زوجة وعيال فيقطع عامة وقته في مرضاتهم.

ومنهم: من اقتصر في تحصيل العلم على سماع بعض الأشرطة، وحضور محاضرة، أو اثنتين في الأسبوع، أو الشهر.

ومنهم: من غلب عليه الركون إلى الدنيا، والتمتع بمباحاتها تمتعاً يفضي به إلى نسيان المعاني العلية.

ومنهم: من يقضي عامة يومه متنبعاً لسقطات إخوانه، ومطلعاً على ما يزيد علمه رسوخاً في هذا المجال .

وهكذا يندر أن تجد إنساناً استطاع أن يعلو بهيمته، ويجمع شمله، ويقصر من الاعتذارات والشكايات، فتصبح حياته مثلاً أعلى يحتذي به.. ولا أزعم أن جمهور الصحوة قد فات عليه أمر الهمة وعلوها، ولكن أقول جازماً بأنه – إلا القليل – لم يستثمروا همهم حق الاستثمار، ولم يحاولوا أن يرتقوا بأنفسهم حق الارتقاء.

◀ يقول الأستاذ المودودي رحمه الله مخاطباً قوماً ممن ذكرناهم آنفاً: 'إنه من الواجب أن تكون في قلوبكم نار منقّدة تكون في ضرامها – على الأقل – مثل النار التي تنقذ في قلب أحدكم عندما يجد ابناً له مريضاً، ولا تدعه حتى تجرّه إلى الطبيب، أو عندما لا يجد في بيته شيئاً يسد به رمق حياة أولاده فتقلقه، وتضطره إلى بذل الجهد والسعي.'

إنه من الواجب أن تكون في صدوركم عاطفة صادقة، تشغلكم في كل حين من أحيانكم بالسعي في سبيل غايتكم، وتعمر قلوبكم بالطمأنينة، وتكسب لعقولكم الإخلاص والتجرد، وتستقطب عليها جهودكم، وأفكاركم بحيث إن شئونكم الشخصية، وقضاياكم العائلية إذا استرعت اهتمامكم، فلا تلتفتون إليها إلا مكرهين.

وعليكم بالسعي ألا تتفقوا لمصالحكم وشئونكم الشخصية إلا أقل ما يمكن من أوقاتكم وجهودكم، فتكون معظمها منصرفاً لما اتخذتم لأنفسكم من الغاية في الحياة.. وهذه العاطفة ما لم تكن راسخة في أذهانكم، ملتحمة مع أرواحكم ودمائكم، أخذة عليكم ألبابكم وأفكاركم؛ فإنكم لا تقدرون أن تحركوا ساكناً بمجرد أقوالكم... الحقيقة أن الإنسان إذا كان قلبه مربوطاً بغايته، وفكره متطلعاً إليها، فإنه لا يحتاج إلى تحريض أو دفع... واسمحوا لي أن أقول لكم: إنكم إذا خطوتم على طريق هذه الدعوة بعاطفة أبرد من تلك العاطفة القلبية التي تجدونها في قلوبكم نحو أزواجكم، وأبنائكم، وأمهاتكم؛ فإنكم لا بد أن تبوءوا بالفشل الذريع [تذكرة دعاء الإسلام: ٥٨].

ويمكن أن نقول: إن مراتب الهمم متفاوتة فيما يلي:

همة لا تسعف صاحبها لقضاء حوائجه الأساسية بل يظل عامة ليلة وسحابة نهاره في نوم وتراخ وكسل، وهذه أدنى درجات الهمم، وصاحبها عاجز يعتمد على الناس اعتماداً كلياً، وهذه المرتبة قليلة في النوع الإنساني، والله الحمد. ومن أمثلتها في الناس: الطفيليون، وطبقة التنازلة المشتهرين في التاريخ بكسلهم، وسقوط همهم.

همة ترقى بصاحبها إلى قضاء الحوائج، والسعي في الأرض، وأداء الفروض، ولكن كل هذا يقضيه بقدر بحيث يستصعب معه كثيراً من الأمور، ويعتقد استحالتها وهي أمور ممكنة التحقق عند غيره، وتجده – عند الاستشارة – كثير الصدّ قريب القصد.. وهذه المرتبة من الهمة يشترك فيها كثير من الناس إن لم نقل أغلبهم.

ومن الناس من يريد الارتفاع بهمته، ولكنه لا يعرف سبل استثمارها، ولا كيفية الاستفادة منها، فتجده متذبذبًا في أموره، فتارة ينجز أمورًا عظيمة، وتارة يستصعب الممكن ويستبعد.. والغالب على أهل هذه المرتبة أنهم لا يحققون ما يصبون له ويتطلعون إليه.

ومن الناس من تتجاوز به همته واقع الناس بكثير وتتعداه، بل تكاد تستسهل المستحيل ولا تخضع له.. وصاحب هذه الهمة نادر في دنيا البشر، ولكنه موجود معروف، يعرفه الناس ويقتدون به، والغالب على صاحب هذه الهمة أنه يحقق أهدافه وغاياته، بل يحقق أمورًا تحتاج في تصور معظم الناس إلى فريق من العاملين لإنجازها.

له هم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

وأيضًا:

تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب الحسنة لم يغله المهر

أهمية علو الهمة في حياة المسلم:

تحقيق كثير من الأمور مما يعده عامة الناس خيالاً لا يتحقق: وهذا الأمر مشاهد معروف عند أهل الهمم؛ إذ يستطيعون – بتوفيق الله لهم أولاً، وبهمتهم ثانيًا – إنجاز كثير من الأعمال التي يستعظم بعضها من قعدت به همته ويظنها خيالاً.

◀ وأعظم مثال على هذا: سيرة المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ المعروف عند أهل التواريخ أن بناء الأمم يحتاج إلى أجيال لتحقيقه، لكنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استطاع بناء خير أمة أخرجت للناس في أقل من ربع قرن، واستطاعت هذه الأمة أن تنير بالإسلام غالب الأجزاء المعروفة آنذاك، وجهاده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعمله، وهمته العالية في بناء الأمة أمرٌ معروف، وهو مما تقاصر عنه أطماع أهل الهمة العالية، وخبالاتهم، وما يتطلعون إليه.

◀ والصدِّيق رضي الله عنه استطاع في أقل من سنتين أن يخرج من دائرة حصار المرتدين، ولم يمت إلا وجيوشه تحاصر أعظم إمبراطوريتين في ذلك الوقت، هذا وقد نهى كبار الصحابة عن حرب المرتدين، وظنوا أنه لا يستطيع أن يقوم في وجه العرب كلهم، ولكن همته العالية أثبت عليه ذلك، واستطاع أن ينجز ما ظنه الناس خيالاً لا ينجز.

الوصول إلى مراتب عليا في العبادة والزهد: وهذا معلم بارز في حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والصحابة، ومن تبعهم بإحسان:

◀ يقول حذيفة: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبُقْرَةَ فَقُلْتُ بَرَكَعٌ عِنْدَ الْمَائَةِ ثُمَّ مَضَى فَقُلْتُ بُصَلِي بِهَا فِي رَكْعَةٍ فَمَضَى فَقُلْتُ بَرَكَعٌ بِهَا ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا يَفْرَأُ مُتْرَسِلًا إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ وَإِذَا مَرَّ بِتَعْوِذٍ تَعَوَّذَ ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ: [سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ] فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ ثُمَّ قَالَ: [سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ] ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: [سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى] فَكَانَ سُجُودَهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ رواه مسلم .

◀ وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ فَلْنَا وَمَا هَمَمْتُ قَالَ هَمَمْتُ أَنْ أَقْعُدَ وَأَذَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رواه البخاري ومسلم وابن ماجه وأحمد.

◀ وهذا معاذ بن جبل رضي الله عنه على فراش الموت يذكر أمورًا تدل على علو همته في العبادة والزهد، فروي عنه أنه قال: اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب البقاء في الدنيا ولا طول المكث فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن كنت أحب البقاء لمكابدة الليل

الطويل، وظمًا الهواجر في الحر الشديد، ولمزاحمة العلماء بالركب في حلق الذكر'. هذا وقد كان يعيش في دمشق ولكنه علا بهمته عما فيها من مغريات وجمال.

◀ وهذا الإمام مالك بن أنس رحمه الله إمام دار الهجرة قد روى عنه الإمام ابن القاسم هذه الحادثة: 'كنت آتي مالغًا غلسًا فأسأله عن مسألتين، ثلاثة، أربعة، وكنت أجد منه انشراح الصدر، فكنت آتي كل سحر، فتوسدت مرة في عينته، فغلبتني عيني فممت، وخرج مالك إلى المسجد فلم أشعر به، فركضتني سوداء له برجلها، وقالت لي: إن مولاك لا يغفل كما تغفل أنت، اليوم له تسع وأربعون سنة ما صلى الصبح إلا بوضوء العتمة، ظنت السوداء أنه مولاة من كثرة اختلافه إليه'. وإذا أردت التوسع في أمثلة عبادة السلف وزهدهم فسيطول بي الأمر، وحسبي ما أوردته دليلاً على علو همهم.

البعد عن سفايف الأمور ودناياها: صاحب الهمة العالية لا يرضى لنفسه دنايا الأمور بل يطمح دائماً إلى ما هو أفضل وأحسن، فتجده يترفع عن مجالس اللغو وإضاعة الوقت، وينأى بنفسه عنها.

◀ يقول ابن الجوزي- متأماً من حال من يقطع يومه وليلته في سفايف الأمور-: 'قد رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعًا عجيبيًا، إن طال الليل فبحديث لا ينفع، أو بقراءة كتاب فيه غزل وسمر، وإن طال النهار فبالنوم، وهم في أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق، فشبهم بالمتحدثين في سفينة وهي تجري وما عندهم خبر، ورأيت النادرين قد فهموا معنى الزمان وتهبأوا للرحيل، فإله الله في مواسم العمر، والبدارَ البدارَ قبل الفوات، وناقسوا الزمان!.'

◀ ولما فر عبد الرحمن الداخل - صقر قريش - من العباسيين، وتوجه تلقاء الأندلس؛ أهديت إليه جارية جميلة، فنظر إليها وقال: 'إن هذه من القلب والعين بمكان، وإن أنا اشتغلت عنها بهمتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن اشتغلت بها عما أطلبه ظلمت همتي، ولا حاجة لي بها الآن، وردّها على صاحبها!.'

صاحب الهمة العالية يعتمد عليه، وتناط به الأمور الصعبة وتوكل إليه: وهذا أمر مشاهد معروف؛ فإن كل رؤساء ومدراء الجمعيات والمؤسسات يطمحون للعمل مع صاحب الهمة العالية، ويطمنون له، ويسعدون به، كيف لا وهو عوض عن فريق من العاملين، وكذلك صاحب الهمة العالية في الدعوة يكون بمثابة فريق من الدعاة، ويرفع الله به الدعوة درجات، وقد قيل: 'نو الهمة وإن حط نفسه تأبى إلا العلو، كالشعلة من النار يخفيها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعاً!.'

صاحب الهمة العالية يستفيد من حياته أعظم استفادة، وتكون أوقاته مستثمرة بنّاءه: وهذا هو مطمع الصالحين، ومراد العالمين، ومجال المتنافسين، وقد كان السلف رحمهم الله يضربون أعظم الأمثلة في هذا المجال، وحسبي في هذا الأمر أن أورد مثالين:

◀ كان الإمام ابن عقيل الحنبلي يقول: 'إني لا يحل أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة؛ أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح!.'

◀ ووصف الإمام النووي حياته لتلميذه ابن العطار، فذكر له أنه كان يقرأ كل يوم اثني عشر درسًا على مشايخه شرحًا وتصحيحًا: درسين في 'الوسيط'، ودرسًا في 'المهذب'، ودرسًا في صحيح مسلم، ودرسًا في 'اللمع' لابن جني، ودرسًا في إصلاح المنطق، ودرسًا في التصريف، ودرسًا في أصول الفقه، ودرسًا في أسماء الرجال، ودرسًا في أصول الدين، قال: وكنت أعلق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل ووضوح عبارة، وضبط لغة، وبارك الله تعالى في وقتي. وقال أبو الحسن العطار: 'ذكر لي شيخنا رحمه الله تعالى أنه كان لا يضيع له وقتًا لا في ليل ولا في نهار إلا في اشتغال حتى في الطرق، وأنه دام على هذا ست سنين، ثم أخذ في التصنيف والإفادة والنصيحة وقول الحق.'

قال الذهبي: 'مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه، والعمل بدقائق الورع، والمراقبة، وتقية النفس من الشوائب ومحققها من أغراضها!.'

◀ وإليك كلامًا مهمًا لأحد الغربيين يوضح حال أهل الهمة مع وقته: قال د. مارتن: 'كل رجل ناجح لديه نوع من الشباك يلتقط به نجاحات وقراضات الزمان، ونعني بها فترات الأيام والأجزاء الصغيرة من الساعات مما يكتسبه معظم الناس بين مهملات الحياة، وإن الرجل الذي يدخر كل الدقائق المفردة، وأنصاف الساعات، والأعياد غير المنتظرة، والفسحات التي بين وقت وآخر، والفترات التي تنقضي

في انتظار أشخاص يتأخرون عن مواعيد مضرورية لهم، ويستعمل كل هذه الأوقات، ويستفيد منها ليأتي بنتائج باهرة يدهش لها الذين لم يظنوا لهذا السر العظيم الشأن! [سبيلك إلى الشهرة والنجاح: ٥٦].

صاحب الهمة العالية قدوة للناس: صاحب الهمة قدوة في مجتمعه، ينظر إلى حاله القاعدون، وأنصاف الكسالى والفاترون؛ فيقتدون بهيمته، ويرون ما كانوا يظنونهم أمراً مسطوراً في الكتب القديمة قد انتهى، وعدم من دنيا الناس، يرونه واقعاً متحققاً في حياتهم، فيظل هذا الشخص رمزاً للناس ومحل ضرب أمثالهم.

تغيير طريقة حياة الأفراد والشعوب: يقول الشيخ محمد الخضر حسين شارحاً المراد: 'يسمو هذا الخلق بصاحبه فيتوجه به إلى النهايات من معالي الأمور؛ فهو الذي ينهض بالضعيف يضطهد أو يزدري، فإذا هو عزيز كريم، وهو الذي يرفع القوم من سقوط، ويبدلهم بالخمول نباهة، وبالاضطهاد حرية، وبالطاعة العمياء شجاعة أدبية.'

هذا الخلق هو الذي يحمي الجماعة من أن تتملق خصمها... أما صغير الهمة: فإنه يبصر بخصومه في قوة وسطوة فيذوب أمامهم رهبة، ويترك إليهم رأسه حطة ثم لا يلبث أن يسير في ریحهم، ويسابق إلى حيث تنحط أهواؤهم!.

وسائل ترقية الهمة: إن تطوير الإنسان لهيمته والرقى بها أمر مطلوب، ويتأكد هذا عند عقلاء الناس، ودعاتهم ومصلحيهم، وهذه جملة أمور تساعد - في ظني - على تطوير الهمم:

المجاهدة: فبدونها لا يتحقق شيء ولا تخطى خطى، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا...﴾ [٦٩] ﴿سورة العنكبوت﴾.

◀ قال ابن القيم رحمه الله: 'أعرف من أصابه مرض من صداع، وحمى، وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وجد إفاقة قرأ فيه، فإذا غلب وضعه، فدخل عليه الطبيب يوماً وهو كذلك فقال: إن هذا لا يحل لك؛ فإنك تعين على نفسك، وتكون سبباً لفوات مطلوبك! فهذا رغم مرضه؛ يجاهد ليقرأ، ويزداد علماً.'

◀ وقال الإمام عيسى بن موسى: 'مكثت ثلاثين سنة أشتهي أن أشارك العامة في أكل هريسة السوق فلا أقدر على ذلك، لأجل البكور إلى سماع الحديث!'

الدعاء الصادق والالتجاء إلى الله تعالى: فهو المسئول سبحانه أن يقوى إرادتنا، ويعلى همتنا، ويرفع درجاتنا.

اعتراف الشخص بقصور هيمته، وأنه لا بد له أن يطورها، ويعلو بها: وهذا أمر أولي نفسي، ومن ثم لا بد أن يعتقد أنه قادر على أن يكون من أهل الهمة العالية، فهذان الأمران:

◀ الاعتراف بقصور الهمة.

◀ واعتقاد إمكانية تطويرها.

عاملان مهمان لا بد منهما في محاولة تطوير الهمة، وبدونهما لا يكون الشخص قد خطا خطوات صحيحة.

قراءة سير سلف الأمة: أهل الاجتهاد والهمة العالية، الذين صان الله بهم الدين، فكم من إنسان قرأ سيرة صالح مجاهد؛ فتغيرت حياته إثر ذلك تغييراً كلياً، وصلح أمره وحسن حاله.

◀ قال علي بن الحسن بن شقيق: 'قمت لأخرج مع ابن المبارك في ليلة باردة من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديث أو ذاكرته، فما زلنا نتذاكر حتى جاء المؤذن للصبح!'

◀ وقال محمد بن علي السلمي: 'قمت ليلة سحرًا لأخذ النوبة على ابن الأخرم، فوجدت قد سبقني ثلاثون قارئًا، ولم تدركني النوبة إلى العصر!'

مصاحبة صاحب الهمة العالية: إذ كل قرين بالمقارن يقتدي، والنظر في أحواله وما هو عليه، وكيف يختصر له الزمان اختصارًا؛ نافع مفيد. وهذا من أعظم البواعث على علو الهمة؛ لأن البشر قد جلبوا على الغيرة والتنافس، ومزاحمة بعضهم بعضًا، وحب المجارة في طبائع البشر أمر لا ينكر.

مراجعة جدول الأعمال اليومي، ومراعاة الأولويات، والأهم فالمهم : وهذا أمر مفيد في باب تطوير الهمة، إذ كلما كان ذلك الجدول بعيدًا عن الرتابة والملل؛ كان أجدى في معالجة الهمة.

التنافس والتنازع بين الشخص وهمة: أعني بهذا: أن على مريد تطوير همته أن يضيف أعباء وأعمالاً يومية لنفسه لم تكن موجودة في برنامج حياته السابق، بحيث يحدث نوع من التحدي داخل الإنسان لإنجاز ما تحمله من أعباء جديدة، ويجب أن تكون هذه الإضافة مدروسة بعناية وإحكام حتى لا يصاب الشخص بالإحباط واليأس. ويحسن اختيار هذه الأعباء الجديدة بحيث تكون مبلغة له إلى الكمال، 'فمن كانت همته حفظ جميع كتب محمد بن الحسن فالظاهر أنه يحفظ أكثرها أو نصفها' [تعليم المتعلم: ٦٠]. فالتحدي الذي نشأ في نفسه بسبب رغبته في حفظ كتب معينة سيوصله إلى حفظ أكثرها، والله أعلم.

الدأب في تحصيل الكمالات والتشوق إلى المعرفة: فمن استوي عند العلم والجهل، أو كان قانعًا بحاله وما هو عليه؛ فكيف تكون له همة أصلاً، قال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: 'إن نفسي تواقفة، وإنها لم تعط من الدنيا شيئًا إلا تافت إلى ما هو أفضل منه، فلما أعطيت ما لا أفضل منه في الدنيا تافت إلى ما هو أفضل منه - يعني الجنة!'

الابتعاد عن كل ما من شأنه الهبوط بالهمة وتضييعها: كثير من الصالحين تضيع طاقاتهم في أمور لا تعود عليهم بالنفع بل قد يكون فيها كثير من الضرر، فمن صور هذا التضييع:

◀ كثرة الزيارة للأقارب بدون هدف شرعي صحيح، ولا غرض دنيوي فيه منفعة وفائدة معتبرة.

◀ كثرة الزيارة للأصحاب بدعوى الأخوة والتناصح، فيكثر في المجلس اللغو والمزاح وتقل الفائدة.

يقول ابن الجوزي رحمه الله: 'أعوذ بالله من صحبة البطالين، لقد رأيت خلقًا كثيرًا يجرون معي فيما اعتاد الناس من كثرة الزيارة ويسمون ذلك التردد: خدمة، وبطيلون الجلوس، ويجرون فيه أحاديث الناس وما لا يعني ويتخلله غيبة، وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المزور وتشوق إليه واستوحش الوحدة، وخصوصًا في أيام التهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام؛ بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان...!'

وكلام الإمام هذا ينطبق - في الجملة - على حال كثير من اللقاءات والاجتماعات التي يقوم بها الناس اليوم.

◀ الانهماك في تحصيل المال بدعوى التجارة، وحبارة المال النافع للإسلام وأهله، ثم لا يلبث هذا الأمر أن ينقلب إلى تحصيل محض، وحب للدنيا والانغماس فيها، ومن ثم يقسو قلب الشخص وتتحط همته.

◀ تكليف الموظف نفسه بعملين: صباحي ومسائي بدون حاجة أو ضرورة ملجئة، وإنما دفعه لهذا حب هذه الدنيا والتمتع فيها.

◀ كثرة التمتع بالمباح، والتترف الزائد، والتترف في النعيم، وكل هذه الأمور من العوامل الفتاكة القاضية على الهمة مهما قيل في تبريرها وتعليلها. ذكر ابن حجر رحمه الله أن تاج الدين المراكشي – أحد فقهاء الشافعية – كان قد انقطع بالمدرسة الأشرفية ملازمًا للقراءة والاشتغال، صبورًا على ذلك جدًّا، بحيث يتمتع عن الأكل والشرب - أي عن فضولهما - والملاذ بسبب ذلك! وهذه الأمور من المباحات قطعًا، ولكن ذلك الفقيه علم أن الإكثار منها والولع فيها سبب لسقوط الهمة وضعف العمل.

الإستجابة للصوارف الأسرية استجابة كلية أو شبه كلية: فنجد الشخص منهمكًا في تلبية مطالب زوجته وعياله، وقد لا تكون مهمة في أحيان كثيرة، وقد يعترض معترض ويورد أحاديث لا تدل على ما ذهب إليه مثل: [خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي] رواه الترمذي وابن ماجه. ومثل: [كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَفُوتُ] رواه مسلم وأبو داود - واللفظ له - وأحمد . وغير ذلك. وإنما هذه الأحاديث في الحث على إحسان الخلق مع الأهل، وعدم تركهم وتضييعهم بالكلية، وقد دخلت علينا في حياتهم الأسرية كثير من التقاليد الغربية في أمر الاحتفاء الزائد بالأهل والأولاد، ودعوى ضرورة بناء مستقبلهم وغير ذلك مما حصلت: نسيان الكفالة الإلهية والضمآن الرباني.

التسويق: وهو داء عضال ومرض قتال، إذ أن 'سوف' جند من جنود إبليس، قال الشاعر:

ولا أدخر شغل اليوم عن كسل إلى غدٍ إنَّ يوم العاجزين غد

الكسل والفتور: 'لا بد للمرء من البعد عن الكسل لأنه قاتل للهمة مذهب لها، وخاصة عند تقدم العمر وعجز الجسم، فهذا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله 'كان يصلّي النوافل من قيام مع كبر سنه، وبلوغه مائة سنة أو أكثر، وهو يميل يمينًا وشمالاً لا يتمالك أن يقف بغير ميل للكبر والمرض، فقيل له في ذلك فقال: يا ولدي، النفس من شأنها الكسل وأخاف أن تغلبنى وأختم عمري بذلك!'

◀ وهذه أقوال تبين ما في العجز والكسل والفتور من آفات:

'ما لزم أحد الدعة إلا ذل، وحب الهويينا يكسب الذل، وحب الكفاية مفتاح العجز!'

وقال الصاحب: 'إن الراحة حيث تعب الكرام أودع لكنها أوضع، والقعود حيث قام الكرام أسهل لكنه أسفل!'

ملاحظة الخلق: أكثر الخلق مفرطون، وهم في الغفلة غارقون ؛ فهم صوارف عن الهمة العلية حيث يغتر بهم ويقلدون في تفریطهم، فالحدار الحذار من غفلة الغافلين والاعتذار بها.

العلامات الدالة على علو همة الشخص:

تحرقه على ما مضى من أيامه.

كثرة همومه، وتألّمه لحال المسلمين، وما يجدون من ظلم وعنت.

موالاته النصيحة، وتقديم الحلول والاقترحات، التي تقوم بالإسلام والمسلمين وتعزهم، لمن يأمل فيهم التغيير، ويرجو منهم الإصلاح.

طلبه للمعالي دائماً فيما يفعله، أو يتعلمه، أو يصلحه: قال الأستاذ محمد الخضر حسين: 'طالب العلم الذي لا يدع باباً من أبوابه إلا ولجه... يكون أعظم همة ممن لا يطرق منه كل باب، أو لم يعرج منه على كل مسألة قيمة، وطالب العلم الذي يخوضه بنظر حر ويتناول مباحثه بنقد وبصيرة يكون أعظم همة ممن يجمع مسائله حفظاً ويتلقاها كما يتلقى حاكي الصدى لا يكلفك غير إملائها عليه!'

كثرة شكواه من ضيق الوقت، وعدم قدرته على إنجاز ما يريده في اليوم والليلة: وليست هذه الشكوى من نمط ما نسمع من ترداد كثير من الناس لها، ولكنها شكوى حقيقية نابعة من عمل دؤوب يستغرق أوقات الشخص، فيبث تلك الأهات الصادقة.

قوة عزمه وثبات رأيه وقلة تردده: فهو إذا قرر أمراً راشداً لا يسرع بنقضه بل يستمر فيه، ويثبت عليه حتى يقضيه ويجنى ثمرته، ولا شك أن كثرة التردد ونقض الأمر بعد إبرامه من علامات تدني الهمة.

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأي أن تتردد

كيفية استثمار همة الناس: يجب علينا أن نحسن استثمار الهمة عند الناس، ونستخرج منهم دفائن الكنوز، وخبايا الصدور والعقول. والناس أمام المسلم الصالح ثلاثة أقسام:

◀ صالح ملتزم بدينه.

◀ ومستقيم محافظ على الفرائض والواجبات.

◀ وثالث مضيع ضائع.

أما القسم الثالث: فيترك لحين إفاقته.

وأما القسم الثاني: وهم المستقيمون المحافظون، ولكن في استقامتهم ومحافظتهم تخليط، فتستثمر همهم كما يأتي:

إن كانوا من ذوي اليسار والغنى يوجهون للمشاركة في أعمال الخير العامة مثل بناء المساجد، وإغاثة المنكوبين، وإقامة المنشآت النافعة ونحو ذلك، وخير ما يمكن أن يشاركوا فيه هو تلك الهيئات والجمعيات الإسلامية المنتشرة في العالم الإسلامي، والله الحمد، حيث إن الكوارث والنكبات التي تحيط بالعالم الإسلامي والتي توضحها وتتبناها تلك الهيئات كفيلة بإثارة نوازع الشفقة والخير فيهم، فينشطون للمساعدة بهمة جيدة.

إن كانوا من ذوي الدخول المتوسطة – وهذا حال معظم ذلك القسم وتلك الفئة – فيوجهون إلى سماع الدروس الطيبة، وخطب الجمعة النافعة التي يؤديها خطباء مشهورون بالتأثير على العامة.

ومن الحلول الناجحة لهذه الفئة هو توجيه شبابها وتحسيهم للمشاركة في الجهاد؛ إذ كم سمعنا عن أشخاص من عامة الناس قد علت همتهم وارتقى بم حماسهم حتى شاركوا في الجهاد، وحسنت صلتهم بالله، والتزموا هذا الدين.

التوضيح والتبيين لهم بأنهم يضيعون أوقاتهم فيما لا يفيد، فلو قضوا ذلك في مجالات أجدى وأنفع لكان حسناً.

توجيههم للقراءة النافعة، إذ معظم تلك الطائفة أميو الثقافة وإن كانوا يحملون شهادات جامعية، فقد عكف الناس للأسف على متابعة أخبار بعينها، وتركوا ما ينفعهم عاجلاً وأجلاً، ويثير فيهم الغرام إلى دار السلام.

وأما القسم الأول: فهو المعتمد عليه، والمأمول منه الإصلاح والرفق بهذه الأمة، ويمكن استثمار همم هذا الصنف كما يأتي:

الانتساب إلى جمعية، أو هيئة لها برنامج عمل محدد ينجز من خلالها كثير من الأمور النافعة، وذلك مثل بعض الهيئات الإغاثية المنتشرة في العالم الإسلامي، أو جمعيات البر، أو لجان البر، أو هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك. وليحذر الأخ من التأثير بما تشتمل عليه بعض هذه الهيئات من نوع خطأ، أو ميل قليل عن الحق، فيترك العمل كلية لأجل هذا.

الانتساب إلى جماعة إسلامية صالحة من الجماعات المنتشرة في العالم الإسلامي، وهي تعمل بجهد وإخلاص لإقامة دين الله، والقائمون على تلك الجماعات لهم برامج محددة تصلح لاستثمار همم الشباب، وإقامة عمل إسلامي نافع.

توعية الشخص المنصوح بأن يختار لنفسه مجالاً يبدع فيه، ويبرز ويكون عطاؤه من خلاله بالغاً غايته، وهمته في إنجازه قوية عالية، فمن وجد من نفسه انصرافاً للعلم وتحصيله؛ فليقبل عليه، ومن وجد منها ميلاً إلى الأعمال الخيرية والإغاثية؛ فليشارك إخوانه، ومن وجد منها حباً للجهاد ومقارعة الأعداء؛ فلا يتوان وليقدم .

محاذير موجهة لأهل الهمة العالية: هذه المحاذير خاصة بأهل الهمة العالية، وليست لغيرهم من متدني الهمم، أو متوسطيها؛ وذلك لأن فيها جملة من الأمور لا يفهمها غيرهم، ولا يدركها سواهم:

◀ صاحب الهمة تعلق به همته دائماً فتأمره بإنجاز كثير من الأعمال المتداخلة في وقت واحد، فليطعها بقدر ولا يستبعد ما تأمر به، وفي الوقت نفسه لا يقوم به كله بل يأخذ منه بقدر ما يعرف من إسعاف همته له بالقيام به.

وتزاحم الأعمال على الإنسان ومحاولة القيام بها مجتمعة أمر لا ينكره أهل الهمة العالية.

◀ صاحب الهمة العالية معرض لنصائح تنبيه عن همته، وتحاول أن تذكره دائماً بأنه: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قُلُوبَيْنِ فِي جَوْفِهِ...﴾ [٤] [سورة الأحزاب]. وأن صاحب الصنعتين كاذب والثالثة سارق، وهكذا... **فالحصيف** لا يلتفت لهذه النصائح إلا بقدر محدود؛ وذلك لأن موجهي هذه النصائح قد تنشأ نصحهم هذه لحسد اعتراهم من حال المنصوح، أو لأنهم يجهلون ما يستطيع عمله هذا الرجل ذو الهمة العالية من أمور لا تدركها أفهامهم، ولا تستطيعها همهم.

◀ وصاحب الهمة معرض لسهام العين والحسد؛ فعليه بالأذكار المأثورة ليدرأ عن نفسه ما قد يصيبه من سهام القدر على يد الحساد.

◀ وصاحب الهمة قد تعثره فترة وضعف قليل لما يراه من تدني همم غالب الخلق؛ فلا يحزن لأجل هذه الفترة، وليوطن نفسه على الإحسان، وعلو الهمة مهما ضعف أو تخاذل من حوله، وأياً كان سبب الفترة التي تعثره فهي أمر طبيعي يعترى العالمين والسالكين، ولينذكر حديث المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فِتْرَةٌ] رواه أحمد. والشرة: النشاط والهمة، والفترة: الضعف والانكسار.

◀ وأهل الهمة العالية قد يكونون مفترطين في بعض الأمور التي قد لا يرون فيها تعلقاً مباشراً بموضوع همهم، وذلك مثل بعض حقوق الأهل والأقارب، فينبغي على من وقع في هذا المحذور أن يلتفت إلى إصلاحه ولو بالقدر الذي يبعد عنه سهام اللائمين.

◀ وقد تؤدي الهمة العالية بصاحبها إلى أن يتحمس تحمساً اندفاعياً، فيستعجل، ويرتكب من الأخطاء ما كان يمكن تلافيه بقليل من التعقل وحساب العواقب، وعلى من وقع في مثل هذا أن يعرف السنن الكونية، وأن الأمر لا يحسم بين عشية وضحاها، وليكن مثله سيد أولى الهمة العالية صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كان يوصي أصحابه رضي الله عنهم بالعمل والصبر، فالصبر لا غنى عنه لأهل الهمم.

◀ وأهل الهمة العالية قد يتعرضون لأمر تؤثر في همهم وتطلعهم إلى معالي الأمور، وأعظم مثال على هذا: التعرض للخلاف الحاصل بين الفقهاء بعين الذم والمقت، ونقدهم والإقلال من شأنهم، ومثاله أيضاً التعرض للجماعات الإسلامية العاملة على الساحة ودمها والتنقص من شأنها، وإصاق التهم بها بدون وجه شرعي معتبر في أحيان كثيرة، ويمضي هذا الأخ سحابة يومه وليلته باحثاً عن الأخطاء متصيداً لها، ومثل هذا الشخص إن أصبح هذا الأمر دينه، فستخلف همته ولا شك، وتعد به عن معالي الأمور.

يقول الأستاذ محمد الخضر حسين: 'كبير الهمة يستبين خطأ في رأي عالم أو عبارة كاتب فيكتفي بعرض ما استبان من خطأ على طلاب العلم ليفقهوه، ويأبى له أدبه أن ينزل إلى سقط الكلام أو يخف إلى التبحر بما عنده، وقد حدثنا التاريخ عن رجال كانوا أذكيا ولكنهم ابتلوا بشيء من هذا الخلق المكروه، فكان عوجاً في سيرهم ولطخاً في صحفهم، ولو تحاموه لكان ذكرهم أعلى ومقامهم في النفوس أسمى، ومنزلتهم عند الله أرقى!'

يقول ابن القيم رحمه الله: 'أعلى الهمم في طلب العلم طلب علم الكتاب والسنة، والفهم عن الله ورسوله نفس المراد، وعلم حدود المنزل، وأخس هم طالب العلم قصر همته على تتبع شواذ المسائل وما لم ينزل، ولا هو واقع، أو كانت همته معرفة الاختلاف، وتتبع أقوال الناس، وليس له همة إلى معرفة الصحيح من تلك الأقوال، وقَلَّ أن ينتفع واحد من هؤلاء بعلمه!'

◀ صاحب الهمة العالية لا بد له من المداومة على الأعمال التي تدوم ولا تنقطع: وليتذكر صاحب الهمة العالية: [أَنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ] رواه البخاري ومسلم. فهمة متوسطة العلو تدوم خير من همة عظيمة منقطعة.

وأسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل الهمة العالية، وأن يبارك لنا في أوقاتنا وأعمالنا، وصلي الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً!

من رسالة: 'الهمة طريق إلى القمة' للدكتور/محمد موسى الشريف